مجلة الحكمة للدراسات الأدبية و اللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد 7 / العــدد: 02 (2019)، ص 07 - 20

أزمنة الرواية العربية (متابعات في مسارات التأصيل والتأويل)

الدكتور محمد حجازي[1]

[1]جامعة الحاج لخضر-باتنة - كلية الآداب واللغات – الجزائر

تاريخ الاستلام: 2019/06/15 تاريخ القبول: 2019/06/26 تاريخ النشر:2019/07/01

تتميز الرواية العربية حين طرحها للدراسة والتأصيل، بجملة من التساؤلات التي تحمل دلالات في المفهومية، والنشأة والتداول، والتأصيل، والتأويل...

لكون الرواية العربية، تجاذبتها الكثير من التفاعلات ذات البعد المَنْشَئِي، والبعد الفني، والبعد الدلالي... ومن ثم تعددت أسئلة الرواية، وتنوعت بالتالي الإجابات عنها؛ بما يدل ويُثبت دلالات الوجود والفنية المصاحبة لمسيرتها، منذ البدء إلى الاحتكاك بالآخر والتأثر والتأثير في مُعطى الكتابة، ومُعطى المعاني المتجاوبة مع الواقع والإدراك الإنساني ككل.

يمكن في ذات الحين، أن يُطرح السؤال الكبير المتداول عند أغلب أهل الفكر والأدب... من مثل تساؤلهم عن الرواية العربية، وهل شكَّلت في بُعدها القَيْمِي والمعرفي والمعنوي، البُعد الذي سارت فيه الرواية العالمية؟ وهل يعني حضورها إضافة للبعد السردي المتواصل بين الأنا والآخر؟

هي أسئلة متداولة، والإجابة عنها محل ترجيح وتأويل واجتهاد.

- الرواية وأزمنة الحضور

إن قصة الرواية في أدبنا العربي، لمن أعجب القصص وأشدها جذبا للانتباه؟.. وذلك لكون انطلاقاتها تحظى بمراوحات زمكانية، لا تفتح أمام القارئ الأبعاد المفصلية والمفهومية في البدء، والنهوض، والتواصل.

إن فرضية الوجود الروائي في المجتمعات الشرقية والعربية منها على وجه الخصوص، تبقى مجال المتابعات والأخذ والرد مع التأكيد على أن ذلك ما زادها انتماءً ورواءً ومعية... كونها تلتقي في كل حكم واتجاه، مع ما يناسب ثقافة القارئ، والدارس

والباحث... أو ما لديه من أحكام مُسبقة، في خصوص الدمج الزمني لمنشأ التأويل والتأصيل.

وهي –أي الرواية- في كل الحالات، مبعث الاهتمام على مستوى الغرب في مسائل التنظير، أو على مستوى الشرق في مسائل البدء والإعداد والهوية.

وهل ما علَّق به فيصل درَّاج في كتابه: نظرية الرواية والرواية العربية، في خصوص التجاذبات التاريخية والواقعية، لهذا الفن المهيمن في عالم الكتابة اليوم ولعله سيستمر كذلك إلى حين؟.. من أن المتابعات الروائية هي أقرب المسالك، إلى قراءة تاريخ الرواية العربية ؛ ما يفتح بذلك أنموذج التَّقصي الذي يحمل دلالات توحي بالمعرفة وبعض الدلائل والبراهين.

إن البحث عن نظرية في الرواية العربية، هو افتراض نظري؟. لا يستوي إلا بقراءة النصوص الروائية المتتابعة، أي بقراءة الرواية العربية، منذ أن نقض المويلحي المقامة، دون أن يدري إلى النصوص المعاصرة التي تَنُوسُ بين تأمل التاريخ والهروب منه. وأمر كهذا يستدعي قراءة نصية متأنية، على مَبْعَدَة من النظريات الجاهزة، التي تُحظى بشغف موسمي، أكثر مما تلتقي باستقبال رصين: قلق الأسئلة..؟[1].

ثم إن الشرط التاريخي كما يسميه، يجعلنا نهتدي إلى الأبعاد التي من أجلها تبنَّى الأدب العربي فكرة الرواية، والتي هي ترجمان لقضايا إبداعية، وفكرية، وفلسفية، وحتى دينية أيضا؛ للخوض في مفترق الطُّرق والانتماء والدلالات العقلية المؤهلة، للبُوح بزمن الظهور والتنظير ثم المسلكية بعدها، لكونه: «يستدعي تأمل الشرط التاريخي للرواية العربية، كما الوصول إلى صياغة نظرية مرافقة البدء من شرط عربي لا تنقصه الهُجنة، شرط أعطى رواية، دون أن يُعطي العلاقات النظرية المرتبطة بها، والتي تحتضن المجتمع، والاجتهاد المفتوح. وتتضمن أيضا الحقول المعرفية المختلفة، التي شكَّلت تاريخيا، وفي الزمن الأوروبي مِهَاد نشوء: نظرية الرواية»[2].

يمكن القول إزاء ذلك، أن أسئلة الرواية العربية تظل مطروحة، وهي أسئلة المجتمع، المجتمع القارئ والدارس والباحث، بل هي أسئلة الجميع، الذي يتجاوز حدود الكتاب إلى مرحلة حدود البعث والمعرفة والتساؤل.

بمعنى الوصول ولو معرفيا دون القطع، إلى أن الرواية العربية: «تختلف عن الرواية الأوروبية في الشروط التاريخية لتكوُّنها، وفي المعايير النظرية التي ترافقها، دون أن يكون بين الطرفين قطيعة كاملة»[3].

يقول الأستاذ/فاروق خورشيد عنها وعن أهميتها: «إن فن الرواية أخذ يحتل تدريجيا مكان الصدارة في حياتنا الفنية، وأصبح يشغل القسط الأكبر من اهتمام المنتج والمتلقي والناقد جميعا... كما أصبح يُحظى باهتمام الكثيرين من الدارسين، يحاولون أن يضعوا له القواعد والأسس»[4].

- الرواية ومسار التأصيل

لقد جاء الافتراض الذي يتحدث عن أن العرب، اقتبسوا فن الرواية عن غيرهم وبالتحديد من الغرب، وأن ذلك جاء عن طريق الترجمات، التي أخذت على عاتقها هذه المهمة التواصلية العلمية الفنية الأدبية... وأن العرب في تاريخهم الأدبي والإبداعي، لم يكونوا يهتمون بلون قولي غير الشعر. لذلك جاء أثَبت وأَوْضَح وأمْتَن وأجْوَد عندهم وهم سادة الشعوب في ذلك لأنهم: « ركَّزوا دراساتهم كلها على الشعر في عصوره والشعر في بيئاته، والشعر في أغراضه، والشعر في مقاييسه، والشعر في تطوره...» [5].

بينما في الجانب النثري، اقتصر أمر العرب على بعض الألوان التي لها دلالات الأحقية العقلية التي كانت تصبغ حياتهم، لا بل تحركها وتدفعها إلى المزيد كفن الخطابة، وسجع الكهان والرسائل، وبعض القصص الذي كانوا يتسلَّوْن ويتلاهون به.

بمعنى: هل كان للموروث السردي في حياتهم، ما يجعلنا نطمئن على الأقل إلى بعض الأدوار التي كان يؤديها الفعل السردي، الذي كان منتشرا فيما بينهم، بل هو حياتهم في مسائياتهم التي ينتظرونها بشغف كبير وتطلُّع أكيدٍ..؟ لما لها من استراحات، وتجاوبات خيالية لا حصر لها؟ إن:« الثقافة العربية التي ظلت ثقافة تقليدية، تضم في سلسلتها الأجناس الأدبية السردية والثقافة التقليدية، كالشعر والمقامة والخطب والبلاغة، ما يجعل الباحث يؤرخ للرواية العربية، من زاوية علاقتها بالرواية الغربية»[6].

يعني أن جذور الرواية منقطعة عن الأصول العربية في التاريخ السّحيق، بما يدل أيضا على أن الذاكرة في هذا الحال لا تتماثل للموروث الذي تسترجعه الذاكرة حين تَوَدُّ السرد أو القراءة، أو الإطلاع، أو الحَكِي أيضا...

وعن هذه الآراء غير المستقرة، والتي تتحدث عن البدايات الروائية عند العرب، فإن أكثر الذين خاضوا ويخوضون في المسألة، إنما يعتقدون أنهم يتحدثون وفق رؤى واقعية لها دلالاتها من التاريخ الأدبي القديم والحديث، وقد تحدث في مثل ذلك أيضا الأستاذ/ محمد كامل الخطيب، الذي اعتبر الرواية من الواقع الغربي أساسا، ومنه استمدَّت من قبل الباحثين والمترجمين العرب، وعليه فإن الرواية العربية :«تواجه أسئلة كثيرة، تتعلق بنشأتها وتطورها، وعلاقتها بالرواية الغربية من جهة، وبالموروث السردي من جهة أخرى، ولما كان تاريخ الرواية العربية يشير بوضوح، إلى أن فن الرواية هو فن مستحدث في الثقافة العربية؛ التي ظلت حتى أواسط القرن التاسع عشر ثقافة تقليدية، تضم في سلسلتها الأجناس الأدبية والثقافة التقليدية المتوارثة»[7].

من هذه الزاوية، فإن الافتراضات غير مجدية في مسألة تحديد الهويات الحقيقية للفعل الإبداعي الذي يترجم خلاصات البدء والنشأة، لكل ما هو من عالم المعرفة والإبداع، وعليه فإن:« الباحث لا يجد مفَرًّا من التأريخ للرواية العربية، من زاوية علاقتها بالرواية الغربية»[8].

وإنه لمن المنطق العقلي والدلالي والقَيْمِي... أن نقول: إن الإنسان يوجد في حاضرة، كلما فكّر في وجوده، فكّر في غابره- كما يقول أهل الفلسفة والحكمة- وذلك يعني مما يعنيه، أن الرواية قد تكون مقتبسة ودخلت إلى القاموس العربي، عن طريق التأثر بالغرب والترجمات التي حدثت لأدبه ومن ثم لروايته على وجه الخصوص. هذا صحيح، غير أنه افتراضي، لكن يبقى مقبولا في جوانب التركيب والشكل والتنظير والتأويل؛ غير أنه في الجوانب الفنية والموضوعية، فإن هذا الحكم والدَّعْوى في حاجة إلى نظر،: «لا بد لنا إذًا من البحث عن سبب آخر غير التقليد، كما لا بد لنا أن نبحث عن أصول أخرى غير النقل والترجمة لفنِّنا الروائي العربي، الذي أخذ يتكامل بسرعة مذهلة...» [9].

إنه لمن رجاحة الإدراك والمعرفة، أن نجعل الحلقات متصلة بين وسائل وفنون الإبداع في الفكر البشري المتوارث؛ وذلك لكون الأشياء لا تنفصم في عُراها المعرفية والإبداعية والتأصيلية... بل هي تراكمات يأخذ بعضها من بعض، في تواريخ متوالية المعرفة والإصدار، مُنْتَشِية العواطف في تسلسل حتى ولو جاء ببعض الدلائل والتأويلات، إلا أن الإشارات تتحدث بذلك، في قيمة المعرفة عند الإنسان في مجمل حيواته المعرفية والإبداعية.

والعربي أكثر هؤلاء الناس خصوبة وحضورا في جانبه الشعري والسردي، وذلك لطبيعته وطبيعة بيئته؛ التي توحي بذلك أيّما إيحاء وتقدير وتميُّز، وقد:« تجلت هذه الألوان التراثية في شكل الرواية ومضمونها، وكان للمقامات تأثير واضح في الروايات المترجمة والمؤلفة من الناحيتين: الشكلية، والأسلوبية. فخضعت لغة الرواية للسجع، وكثرة المترادفات، والمفردات الصعبة، وكان لألف ليلة وليلة تأثير واضح في المضمون، فبرزت في النص الروائي معالم بطل الحكايات، وخضعت الأحداث للمصادفات، والعجائبي والخارق»[(10)].

تكمن المفارقات بطبيعة الحال، في الوجود التاريخي للأصل الروائي في التراث العربي القديم و في أزمنته، بمعنى: هل يمكن أن يُدرج ذلك في إطار التلاقح المعرفي الذي نَسْتَبِين من خلاله التجربة الواقعية لمجالات المعرفة عامة، والْحَكِي على وجه الخصوص؟ وهل يمكن القطع في مسائل مستحدثة في منابتها الأساسية، دون إكمال البناء مع الجذر المُؤَسِّس والمُؤَصِّل، لدواليب المعرفة القديمة فيه؟.

مثل هذه الأسئلة حتى في تبايُنها، تصنع عالم المعرفة والتخيُّل وتجيب عنه وفق أزمنة الأحداث والمعرفة والتجاوبات العميقة في متابعاتها وقيمة القيمة فيها. فيكون الاستقرار المعرفي الضمني المشروط، وسيلة الإدراك بتفاوتٍ حول الأحكام وصناعتها. وهل يمكن الإيمان بكون الجذور جديدة بالنسبة للأجناس الأدبية كالرواية مثلا؟..

إن كَائِنًا مَنْ كان المُتقول والمنظّر، حتما يصل أيضا إلى القول:« لست أظن أن جنسا أدبيا ما يولد من لا شيء، فإن لم يكن نتج أو تحول عن جنس أدبي آخر، فإنه نتج حسب شروط موضوعية ومادية. وحتى تحوّل جنس أدبي إلى جنس أدبي آخر؛ تحول

بنيوي في الجنس- كالرواية والمقامة مثلا- وهذا يحتاج إلى شروط موضوعية، لأن التحولات بهذا المعنى تقطع صلتها بماضيها وتؤسس لحظتها التاريخية الجديدة. بمعنى.. فكرة البدء، والأساس لاستمرارها، إلا بما هو كائن وموجود ومدروس[11].

يُدرك الملاحظ المُتمعِّن في العملية القراءاتية، أن الجذور ثابتة وموجودة، غير أن تواصلها حتمي الدلالة ممكن المقابلة؛ غير أنه بعيد الارتباط والمماثلة، كون النص القصصي القديم أو ما يشبهه ويماثله، هو عبارة عن إرث ثقافي لا شك أنه خدم نظام القصص الحديث في أشكال عدة، وفي مساحات بائنة من العملية، لكن هل يُحظى قديما بهذه النظريات والقواعد والقوالب... التي تجُرُّ إلى التلميح والتأويل دون التصريح، بأن العملية في أساسها كانت امتدادا للبداية؟.. هل يفكر القارئ في مثل هذا التواصل؟. وهل هو تواصل معرفي حقيقي، خدمة لواقعٍ مَا هو موجود؟. أو نبرة الاستمرارية المعهودة من بعض الكتاب دون التمييز والبُوح بما هو حقيقي ومُتَضمَّن فعلا؟. هذه هي أسئلة الرواية المعهودة، وهي تُطرح كبديل جديد قديم، و:«العثور على بعض عناصر القَصِّ في الكتابات النثرية العربية القديمة، لمؤلفات أبي العلاء المعري، وابن المقفع، وكتابات الجاحظ وبديع الزمان الهمذاني في مقاماته الأربع مائة، وهذه الكتابات انقطع استمرارها نتيجة ظروف تاريخية وسياسية، ولم تُعاود الظهور إلا في فترة متقدمة جدا، عندما تلاشت كل الأسباب التي كانت تربطها بشروطها...» [12].

من مثل ما هو حاصل في التأصيل، لظهور الرواية العربية في مشرقها ومغربها، بحكم تقابلي في مسألة الامتداد من عدمه. وهل يمكن التأكيد على التواصل الواضح والبيِّن مع الإرث الثقافي والمعرفي؟ أم أن ذلك، موضِعَ جدلٍ وترددٍ؟..

ومن الإجابات التي لها بعض السَّند في المسألة المطروحة، يمكن القول: «بأن الرواية العربية ليست إلا امتدادا للكتابات النثرية العربية الموروثة، واستفادت من الروايات الغربية المقتبسة أو المترجمة أو الأصيلة المقروءة في لغاتها الأم.

بل إن للعرب الفضل في ظهور الرواية عند الغربيين، وما هم عليه من تطور في المجال؛ إنما هو اصطحاب لتلك الترجمات العربية الموروثة منذ ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، والبخلاء.. وغير ذلك من شتى فنون القصص والحَكِي [13].

أم أننا نعتمد أنموذج الموافقات، كون الاستمرارية دلالة البعد الإنساني المتجذر والمتأصل، لحركية المجتمع الذي هو في تواصل دائم وغير منقطع لكون املاءات الحياة هكذا، وعلى جميع المستويات التكوينية والإبداعية والافتراضية... لكون الافتراض أسٌّ من أسس الوصول والتواصل، لحتمية وجوده في مفصل بين الإرث والواقعي والمأمول إن: « ذلك هو شأن الإنسان الذي أُوكِلت له موهبة ما، ليجد لها المجال داخل حركية المجتمع، فيسد موضعه ليحقق في حتمية ترابطية حقوقَهُ وواجباته، بَيْدَ أن أبنية اجتماعية تُقَوْلِبُ المنظور من زاوية أن الإنسان كتلة هجينة لجملة من القدرات الإبداعية تنفي عنه ميزة التخصص... ومن هنا تضاربت المفاهيم وتضببت الآراء، كان ضحيتها المبدع والمفكر على السواء...»[14].

ألا يمكن أن يُعدّ هذا الحكم العام في مجال الإبداع والفكر والدراسة، ينطبق من ضمن ما ينطبق أكثر حول الرواية، التي لامَسَهَا وشَابَهَا الكثير من الغموض، لا بل والدهشة أيضا؟ لكونها عملية سردية تسير في مفصل المسيرة الإنسانية المُوغِلة في القِدَم؛ لكنها تطالعنا بِبُعدها الحداثي المتميّز عن فنون الحكي والسرد في القديم؟.

بما يدل على أن حركية الكتابة، كعامل ذاتي واجتماعي وكفن من الناحية الفكرية والتصويرية لم تتبلور بشكل محدد ومفهوم لدى كثير من الكتاب –والروائي أحدهم- الذين اقتحموا هذا الكيان الحساس، حيث التفسيرات الذاتية لا تعدو أن تكون القشرة الخارجية دون تفجرها من الداخل؟: «فمسئولية التبيان لمنظورنا، تقتضي إزالة الغموض عن القضية، بقسط من العلمية والواقعية في التصور [15].

في المجمل النصي للرواية، وللبعد السردي حين التناول والدراسة، يمكن الحديث إزاء موقع الأصل والهوية، من أن التراث ومواده التي تتعلق به، هي أنموذج الفعل الروائي الراهن، وذلك بالمنطلقات الأساسية التي هي بواعث المسارات الروائية الدالة في علاقة الكتابة والمقروئية أيضا، كون السند التراثي يحمل دلالات الأصل والمنبع، ويحمل وظيفة تأصيل النص بالعودة إلى الموروث، الذي ينبه الذات إلى الفواصل القيمية التي تشكل الدال والمدلول في الإبداع الروائي، والمقروئية الحكائية ككل، هي: «مهد لظاهرة توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، ما بذله بعض

النقاد والباحثين من جهود للعودة بالرواية العربية إلى تلك الأصول والجذور التراثية، بدلا من ربطها بالرواية الغربية» [16].

وهل ما ذهب إليه الأستاذ/ موسى سليمان في كون الانتماء الروائي العربي في المفهومية والسِّقاية يعود إلى ألوان كثيرة:« من القصص الديني، والقصص البطولي، وقصص الفرسان، والقصص الإخباري والمقامات، والقصص الفلسفي الزاخر في التراث العربي القديم»[17].

- الرواية ومسار التأويل

هل يعني أن ذلك يشكل رواية عربية جديدة، مغايرة للشكل السردي الحكائي القديم؟ أم أن عزوف الرواية العربية في مجملها عن قيم الرواية الغربية؛ يعني من ضمن ما يعينه، ولادة نص روائي عربي مختلف في جوهره عن مستويات الدلالات في الرواية الغربية؟..

لكنه يحتفي بالقواعد والقوالب التي جهزها كتاب الغرب، لأوضاع الرواية كشكل فني تستدعي كتابته حضور حزمة من التقنيات حتى يُحقق العمل السردي غايته وهدفه وبغيته... لذلك يمكن القول: «إن الرواية العربية، تميزت بشكل فني مغاير للشكل الفني في الرواية الغربية... وغاصت في البيئة المحلية ورصدت عادات وتقاليد وتراث الشعب، ولا سيما حكايات ألف ليلة وليلة، التي أثّرت كثيرا في المنحى الروائي العالمي، وبالخصوص في روائيي أمريكا اللاتينية، كالروائي الكولومبي: (غابرييل غارسيا ماركيز) وغيره من الروائيين العالميين، الذين ساهموا في نهضة الرواية وجعلها البعد الذي يُنتج واقع الناس ويتحدث عنه.

وذلك ما سلكته الرواية العربية في بعدها المعرفي، حيث عادت إلى قراءة التراث، والتأسيس عليه، والغوص في بيئته المحلية [18].

ينطوي هذا الكل من التأويل والتحليق في الفضاء الروائي، على المأمول من التركيبة التي تحوى مسارات الرواية مجتمعة، وهي تتشكل وفق أنساق معرفية، قد يكون النسق الفلسفي أحد معطيات الفعل الكتابي والإبداعي، كون الحقل الفلسفي أحدا أخصب الحقول المعرفية للكاتب حين يُفلسف مظاهر الحياة، ويحاول فعل ذلك

مع الواقعي منها أيضا، بمعنى، أن: «الرواية بهذا المفهوم، صدرت عن مضاربات فلسفية أو عن نظريات مسكونة بفكرة النسق الفلسفي، الذي ينزع إلى تأويل الظواهر الاجتماعية المختلفة، الأمر الذي يجعل من قراءة الممارسة الروائية مستوى نظريا بين مستويات أخرى»[19].

وإذا كان الأمر في البدء والانتهاء، يوحي ببدء وغاية، فإن الرواية العربية يؤرخ لها بظهورها الفعلي برواية: (زينب) لهيكل، هذا إن كان ولا بد أن تسير وفق هذا الاتجاه، الذي يرمز إلى بواكير نظام حكي من صنف الرواية؟.. غير أنه بالنظر إلى مستواها اللغوي المتين والمحكم والغنائي، بتلك اللغة الخصيبة والإبداعية...، فإن المسألة فيها نظر أيضا... كونها تصلح أن تصنف مع القصة..؟ وذلك لتداخل مساحات هذا الجنس الأدبي فيها، أكثر من مساحات الرواية في لغتها البسيطة القريبة، من القارئ العادي الذي لا يحتاج إلى قاموس لغوي لمعرفة الدلالات والإيحاءات اللغوية، التي تنهض بفقه المعنى وإدراكه في الكتابة الروائية... ويبقى الأمر للطرح وللباحثين، لإبداء آرائهم وفق علل تؤهل كتاباتهم للخوض، في مثل هذه المفارقات الإبداعية التي تفصل فيما بينها ضوابط لا يعرفها ولا يدركها إلا أهل الاختصاص والنقد والإبداع التمييزي.

- الحضور الزمني للرواية الجزائرية

وبالنظر للرواية الجزائرية، فإن ما يقال عن الرواية العربية، يمكن أن يَصْدق عليها إلى حد ما، كونها هي أيضا من مسارات النهضة الحديثة التي احتكت بأوروبا وبنضج العقل الأوروبي، إثر الصحوة الإبداعية والفلسفية والعقلية التي شهدتها بعد أن أطاحت بالممالك القاهرة المستبدة، حيث انفتح العقل على مجمل حيوات الإنسان.. حتى صار يألف التفكير ومنطلقاته في الكثير من الأشياء والحالات... ومن ثم عُدّ رائدا في الإبداع والصناعة والابتكار والحرفية... وكل ما من شأنه أن يعلي بمكانة الإنسان العلمية والأدبية.

ولعل بعض الذي يتحدثون عن أن الشعب الجزائري، أكثر الشعوب احتكاكا بالأوروبي كون الاستعمار الفرنسي، أشد حرصا على مستعمرته الجزائر، وهو الذي كان لا يعتقد بخروجه منها، إذ فرّط في جميع مستعمراته، من أجل أن تبقى الجزائر ضفّته

الأخرى على المتوسط، ومن ثم كان الارتباط أقوى وأشمل، إن على مستوى اللغة أو حتى التفكير..؟ لهذا جاءت الرواية الجزائرية أكثر قربا من الأفكار المتصارعة في أوروبا، لا بل تُعد بعض الروايات ناطقة رسمية باسم بعض الإيديولوجيات السائدة في الضفة الأخرى... مع ظهور نفحات من الإرث الثقافي والمعرفي والحضاري والتراثي، في مساحات واسعة من هذه الفضاءات الروائية المتميزة في قالبها الفني؛ الذي يؤهلها لاحتلال مكانة مرموقة بين الآداب العالمية، والدليل على ذلك أن نقاشات مستفيضة كانت محاورها هذه الرواية الفنية، بمثل هذه الأفكار المألوفة حينا والغير مألوفة في أحيان أخرى: «وهذا ما أثار مناقشات كثيرة وغنيّة بسبب غنى مستواها الفني، أو بسبب ما يطرح من إشكالات مختلفة وما إلى ذلك...» [20].

إن مسار الرواية الجزائرية في بُعده التنظيري، لا يختلف كثيرا عن مسارات العملية التوالدية للرواية العربية، وإن كانت مساحات التأثر فيها أكثر، لكون الأسباب السالفة الذكر مدعاة لهذا الحرص التأثري، الناجم عن وحدة المكان مع الأوروبي، الذي صنع بتأثيراته تغيرات بارزة في أشكال حياتية متعددة، بما أوحى بالبعد التجريبي النظري لمساقات الإبداع، الذي تكفل بمشاكل الإنسان في مختلف أضرب الحياة، من سياسية وثقافية وحضارية الخ... والجدير بالذكر أيضا في هذا السبيل، أن الرواية العربية ككل، فيها من التضارب في المنشأ الكثير من الاختلاف والدواعي السياقية، التي أوجدتها ونهضت بها لكن في المقابل فإن الرواية الجزائرية المُعربة، لهي الوجه الآخر للرواية الجزائرية ذات المنشأ الغربي بالتحديد لكون عوامل التأثير والتأثر أكثر بعدا، وأكثر تميزا ونضجا وتأثيرا: إن الرواية الجزائرية حديثة العهد بالظهور والمكتوبة منها باللغة العربية أكثرها حداثة، إلا أننا نستطيع القول أنها منذ ظهورها الأول، قد اقتحمت الساحة الأدبية بشكل قوي.

غير أن البدايات الحقيقية لطقوس هذه الرواية، تبقى محل اجتهاد ومعاينات قياسية، تسير وفق قدر التخمين والمقروئية، التي يُحبَّذ بعضها على آخر، وهذا ما يميز معيار البدايات، ويدفع بطرح أسئلة حول البداية أكثر، وفي حدود زمانية أبعد. إن:

«المحاولات الأولى البسيطة والمتمثلة في (غادة أم القرى) أحمد رضا حوحو (الطالب المنكوب)عبد المجيد الشافعي، و(الحريق) نورالدين بوجدرة.[21].

قد تكون وفق بعض المعايير، هي البدايات لرواية جديدة في مجتمع فكت عنه الأغلال، وانعتق من مستعمر لم يبق له ولم يذر عنه أي شيء. لذلك جاءت هذه الرواية، وفق هذه المفاهيم التحريرية التي رأت في الكبت والاستدمار، الوجه القبيح للمجتمع الغربي الرأسمالي، الذي يعمل وفق قاعدة: (دعه يعمل، دعه يمر)، ما ترك أصحاب الرواية، يختارون المنهج المناقض هو منهج حماية البروليتاريا والطبقات السحيقة كما يعتقدون، فجاءت رواية (ريح الجنوب) لابن هدوقة لتصور هذا الصراع وتعلن بدايات الرواية الجزائرية، بمواصفات تقنية عالمية للرواية الحديثة، التي هزت عقول الناس ومشاعرهم في كل الأصقاع؛ لأنها ترجمت أحوالهم وظروفهم حسب مقاييس الواقعيات المعاشة، والطفرة الجديدة التي ظهرت من خلال بواكير التحرر والانعتاق، فكانت هذه هي إجابات الرواية، عن الأسئلة المطروحة حول بدايات الرواية... والتي يمكن أن نطمئن فيها إلى طرحٍ، يخلُص في مؤداه إلى أن لكل شيء جذر؛ وجذر الرواية أصل القصص والحكايات: «لست أظن أن جنسا أدبيا ما يولد من لاشيء، فإن لم يكن نتج أو تحول عن جنس أدبي آخر، فإنه نتج حسب شروط موضوعية ومادية... والتحولات البنيوية في الجنس الأدبي قطعية وانفصالية بمعنى أنها تقطع صلتها بماضيها وتؤسس لحظتها التاريخية الجديدة»[22].

والسؤال الآخر الأكثر إلحاحا في هذا المطلب: متى تأتي هذه اللحظة الجديدة؟..

الهوامش

1- المركز الثقافي العربي- بيروت-ط1-1999-ص (تقديم الكتاب).

2- نظرية الرواية والرواية العربية- ص (مقدمة الكتاب).

3- نظرية الرواية والرواية العربية- ص5.

4- في الرواية العربية (عصر التجميع)- دار العودة بيروت –ط3-1979-ص9.

5- في الرواية العربية (عصر التجميع)- ص12.

6- محمد رياض وتار- توظيف التراث في الرواية العربية- اتحاد الكتاب العرب دمشق –ط -2002- ص7.

7- وزارة الثقافة- دمشق-ط1990-ص5-6.

8- محمد كامل الخطيب- تكوين الرواية العربية - ص5.

9- فاروق خورشيد- في الرواية العربية- ص10.

10- د-عبد الرحمان ياغي- الجهود الروائية ما بين سليم البستاني ونجيب محفوظ- الموسوعة العربية للدراسات والنشر- بيروت- ص38-39.

11- بتصرف/ محمد معتصم- النص السردي (الصيغ والمقومات)- شركة النشر والتوزيع المدارس- الدار البيضاء – المغرب- ص13.

12- ينظر/ المرجع نفسه- ص13.

13- بتصرف/د. ضياء الصديقي-فنية القصة (مجلة عالم الفكر)- عدد4- 1995م- ص150-155.

14- ينظر/ حاج محجوب عرايبي-دراسات في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة- نشر إبداع- الجزائر-ط1-1993-ص17.

15- المرجع نفسه- ص17.

16- محمد رياض وتار-توظيف التراث في الرواية العربية- منشورات اتحاد الكتاب- العرب-دمشق-ط2002-ص11.

17- ينظر/الأدب القصصي عند العرب-دار الكتاب اللبناني- بيروت-ط3-1960- ص13.

18- بتصرف/ محمد رياض وتار- توظيف التراث في الرواية العربية- ص11.

19- د/ فيصل درّاج- نظرية الرواية والرواية العربية- المركز الثقافي العربي

20- -بيروت-ط1-1999-ص5.

21- مصطفى فاسي –دراسات في الرواية الجزائرية- دار القصبة للنشر الجزائر- ص4.

22- ينظر/ دراسات في الرواية الجزائرية- مصطفى فاسي-ص3.

23- محمد معتصم- النص السردي العربي (الصيغ والمقومات)- ص13.

ثبت المصادر والمراجع

1- فيصل درّاج- نظرية الرواية والرواية العربية- المركز الثقافي العربي- بيروت-ط1-1999.

2- فيصل درّاج- نظرية الرواية والرواية العربية.

3- فيصل درّاج- نظرية الرواية والرواية العربية.

4- في الرواية العربية (عصر التجميع)- دار العودة بيروت –ط3-1979.

5- في الرواية العربية (عصر التجميع).

6- محمد رياض وتار- توظيف التراث في الرواية العربية- اتحاد الكتاب العرب دمشق – ط -2002.

7- محمد كامل الخطيب- تكوين الرواية العربية- وزارة الثقافة- دمشق-ط1990.

8- محمد كامل الخطيب- تكوين الرواية العربية.

9- فاروق خورشيد- في الراوية العربية.

10- د-عبد الرحمان ياغي- الجهود الروائية ما بين سليم البستاني ونجيب محفظ- الموسوعة العربية للدراسات والنثر- بيروت.

11- محمد معتصم- النص السردي (الصيغ والمقومات)- شركة النشر والتوزيع المدارس- الدار البيضاء – المغرب.

12- محمد معتصم، النص السردي (الصيغ والمقومات).

13- د. ضياء الصديقي-فنية القصة (مجلة عالم الفكر)- عدد4- سنة1995م.

14- حاج محجوب عرايبي- دراسات في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة- نشر إبداع- الجزائر-ط1-1993.

15- حاج محجوب عرايبي- دراسات في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة.

16- محمد رياض وتار-توظيف التراث في الرواية العربية- منشورات اتحاد الكتاب- العرب-دمشق-ط2002.

17- الأدب القصصي عند العرب-دار الكتاب اللبناني- بيروت-ط3-1960.

18- محمد رياض وتار- توظيف التراث في الرواية العربية.

91- د/ فيصل درّاج- نظرية الرواية والرواية العربية- المركز الثقافي العربي-بيروت-ط1-1999.

20- مصطفى فاسي –دراسات في الرواية الجزائرية- دار القصبة للنشر الجزائر.

21- دراسات في الرواية الجزائرية- مصطفى فاسي.

22-محمد معتصم- النص السردي العربي (الصيغ والمقومات)-